النص الثالث

لعل المعيار النقدي الرابع والأهم هو ملغمة العناصر المتباينة في كلية واحدة تجعل من القصيدة مجمع صلات ومعقد ارتباطات من شأنها أن تشكل بنياناً متماسكاً لا انفصام لجزئياته. وربما أمكن تلخيص هذا المعيار بلفظة واحدة هي: التكامل، بمعنى أن كافة وحدات القصيدة تتعاضد كيما تصنع التأثير المطلوب وتنقله إلى المتلقي. ويختلف هذا المعيار عن سابقه في أن معيار الصور المتنامية إنما يشرح وحدة شذرات الصورة الواحدة المؤلفة من عنصر واحد، ومعنى واحد، في الجوهر الأعمق، أما معيار الالتغام فهو قدرة الشاعر على توليف عدة عناصر، وعدة معان، ثم صهرها في مصهر القصيدة بحيث تجيء بارئة من الشروخ ومعافاة من أي فصام كبير. وفي الحق أن هذا ضرب من الانجاز لا تستطيعه إلا الفطرة الفذة الفائقة. ولهذا يمكن للمتحري أن يجد للفصام الكتابي آثاراً في معظم الأعمال الأدبية، ولا سيما في الرواية.

والحقيقة أن هذا المعيار الرابع ذو صلة وثيقة بالمعيار السابق، إذ أن افتقار صور القصيدة إلى التنامي، ووجود ثغرات تفصل بين الذرات التصويرية، من شأنه أن يعيق الغائية التكاملية للقصيدة، بل لعله أن يكون أول علائم عدم التكامل والتساند. وعلى هذا الأساس، يمكننا أن نعرّف القصيدة بأنها أُحادية تتأسس على شبكة من الترابطات المتينة، أو بأنها تكامل الأشتات والمتفرقات في كيان متناغم. ولهذا أرى أن معيار الالتغام واحد من أهم محكات الشعر الحديث، لأنه يبين وحدة القصيدة وباطن النفس، أو يكشف عن وجود قطيعة بينهما، إذ لا يوجد شيء يخشاه الباطن كما يخشى الشتات والفصال والفوضى؛ ثم لأنه يرى في المضمون منبثقاً لوحدة البنيان الاجمالي للعمل الفني، كما يرى في ذلك مجلى جمالياً للمضمون، بل مجلاه الجمالي الوحيد.

وفي الحق أن شعر فدوى يملك أن/ يصمد أمام هذا المعيار، ولكن صموداً نسبياً فقط. ولعل خير قصيدة تحقق هذا الصمود النسبي هي: «لن أبكي»، التي كتبتها إثر لقائها بالشعراء في حيفا بعد حرب حزيران (يونيو) ببضعة أشهر.

دعنا نأخذ بتحليل عمل كل من عناصر القصيدة ابتغاء أن نرى، في النهاية، كيف تعمل هذه العناصر متساندة لاخراج عمل فني جميل، وإن كان لا يخلو من عيوب أصيلة في الشاعرة لا تفارقها أبداً.

تقع القصيدة في أربع فقرات نشعر لدى الانتقال من أولاها إلى ثانيتها أننا قد وثبنا من فوق ثغرة ليست بالخفية، وذلك لأن الموضوع لم ينمُ نمواً طبيعياً وداخلياً. فبينما قدمت صورة للدمار في الفقرة الاولى، فإنها راحت تقدم الشعراء بوصفهم «مصابيح الدجى»، وهذا يعني أن الانسجام ليس كافياً. ومع هذا فإننا إذا ما أخذنا الفقرة الاولى بمعزل عن القصيدة فربما وجدنا أن الفكرة قد عملت على تحديد الشكل، وبذلك أكدت ما فحواه أن الفكرة، بوصفها شرطاً للشكل، ومن حيث هي سابقة عليه، قد نهضت فعلاً بتحديد الشكل وصوغه، بل إن حراك الفكرة والفقرة ملتغم في داخل اللغة أيما التغام، أو قل بلغة شائعة: إن الفقرة قد جاءت بمثابة إفصاح بينّ عن توافق الشكل والمضمون.